صحف مطوية من التاريخ الاسلامي

٣ ـ العرب فى غاليس وسويسره

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تتمة البحث

أتينا فيما تقدم على أخبار الغزوات والمستعمرات المسلمة فى غاليس ولومبارديا وسويسره منذ أواخر القرن الثامن الميلادى حتى جلاء المسلمين نهائياً عن تلك الوهاد والسهول فى أواخر القرن العاشر ، ونحاول الآن أن نعرض طرفاً من العوامل والظروف التى أحاطت بتلك الغزوات ، وطرفاً من الآثار التى خلفتها فى البلاد والأمم التى كانت ميداناً لها

ينكر بعض مؤرخى الغرب على تلك الفتوحات والغزوات العربية والاسلامية بوجه عام خاصة الاستقرار والانشاء ، ويقولون إنها كانت فى الغالب حملات ناهبة تقوم على رغبة الكسب وتحصيل الغنائم ، ولا ريب أن ظمأ المغنم ، وشغف المغامرة ، وما إليهما من لذة الاستكشاف والسيادة كانت من أهم العوامل التى قامت عليها هذه الغزوات ؛ وتلك هى العوامل الخالدة التى تقوم عليها فتوحات الأمم منذ أقدم العصور ؛ ولكن من الحق أيضاً أن نقول إن نزعة الجهاد لم تكن بعيدة عن تلك الغزوات ، وإن كثيراً من أولئك المغامرين البواسل كانت تحفزهم الحماسة الدينية وفكرة الجهاد فى سبيل الله ؛ وقد كانت هذه العصابات الغازية المستعمرة تعمل فى الغالب لحساب نفسها ، ولكنها كانت تعمل ملحوظة بعطف الحكومات والأمم الاسلامية التى تنتمى إليها ، وكانت تؤدى إلى تلك الحكومات خدمات جليلة بما كانت تقوم به من إزعاج الحكومات والأمم النصرانية وإضعاف جيوشها ومواردها ، ومن المحقق أيضاً أن نزعة الاستقرار والأنشاء لم تكن بعيدة عن أذهان الغزاة ، بل كان يحفزهم مثل ذلك الروح الاستعمارى القوى الذى دفع الأمم الغربية فى العصر الحديث إلى افتتاح الأمم المتأخرة واستعمارها[1] ؛ وقد استقروا بالفعل واستعمروا حيث سهدت لهم الكثرة والقوة سبل البقاء ، كما فعلوا فى أقريطش ، حيث استقروا بها بعد افتتاحها ، زهاء قرن وثلث قرن (٨٢٧ — ٩٦١ م) ونشروا بها الاسلام والحضارة الاسلامية ؛ وكذلك استقروا مدى حين فى بارى وفى تارانت من ثغور إيطاليا الجنوبية ، وفى راجوازا (رغوس) من ثغور الأدرياتيك الشرقية ، وكان لهم على شواطئ قلورية (جنوب إيطاليا) مستعمرات زاهرة لبثت حلية هذه المياه عصراً . هذا ولسنا نتحدث عن دولة الاسلام فى اسبانيا ، ولا دولة الاسلام فى صقلية ، لأننا نخص بهذا الحديث غزوات الجماعات والعصابات المسلمة التى كانت تعمل لحساب نفسها مستقلة عن الحكومات

ويبالغ المؤرخون الغربيون أيضاً فى تصوير الآثار المخربة لتلك الغزوات الاسلامية ، وما كانت تقترن به من ضروب العنف والسفك ، ولكن العنف والقسوة والسفك والتخريب لم تكن خاصة بالغزوات الاسلامية ، وإنما كانت من خواص العصر ذاته ؛ ولم تكن الغزوات النصرانية للأراضى الاسلامية أقل عنفاً وسفكاً ؛ ويكفى أن نشير هنا إلى الحملات الصليبية التى لبثت مدى عصور تحمل إلى الأمم الاسلامية أروع صنوف الدمار

وسمع من فى الجانب الشرقى من النيل بضجة الحرب ، ورأوا ما اندلع فيها من لهب ، وما تردد فيها من قصف يشبه قصف الرعد ، فلم تثبت نفوسهم بما لا عهد لهم به ، وإن كانوا حريصين على أن يجاهدوا ويجالدوا ، وخانهم الجلد وإن كانت نفوسهم توّاقة الى أن يثبتوا ويصبروا . والذعر متى استولى على النفس ، لم يبق فيها محل لثبات ولا لصبر ، ولم يترك فى القلب موضعاً لحفاظ ولا لحمية . فركبوا رءوسهم وهاموا على وجوههم ، بعضهم ناج بنفسه لا يلوى على شىء ، وبعضهم استطاع أن يثبت نفسه ليخرج بأهله وحرمه ، وأقبل عليهم الليل ، وهم فوضى مشردون مشدوهون ، يحسبون كل صيحة صوت مطارد ، ويخشون أن يكون كل متردد فى الظلام عدواً مقبلا بسفك الدماء وهتك الأعراض

وهكذا شهدت أهرام مصر كيف تتم للطاغية جريمته بتكبة شاملة ، لا يبقى فيها بر ولا فاجر ، ولا يسلم منها الظالم ولا الضحية

محمد فريد أبو حديد

(١) Finlay : Byzantine Empire Ch. III—1

والسفك ؛ بل يكفي أن نشير إلى ما كانت ترتكبه البعوث الاستعمارية الحديثة ، الاسبانية والانكليزية والفرنسية ، في الدنيا الجديدة من صنوف القسوة والسفك ، وما ترتكبه اليوم بعض الأمم الأوربية « المتمدنة » من الجرائم المروعة في أفريقية وآسيا باسم المدنية والاستعمار

* * *

والآن لنر ماذا خلفته الغزوات الاسلامية في هذه الأنحاء من الآثار المادية والاجتماعية . ومن المحقق أن هذه الآثار لا تكاد ترى اليوم ، ولا يشعر بها إلا الباحث المنقب ، ويلاحظ أولا أن الفتوحات العربية الأولى في غاليس وأكوتين لم يطل أمدها أكثر من نصف قرن ، ولم تكن الحضارة الاسلامية في اسبانيا قد تكونت وتفتحت بعد . ثم كانت الغزوات اللاحقة التي فصلنا أخبارها ، والتي كانت أقرب إلى المغامرات المؤقتة منها إلى الفتوح المستقرة ، فلم تتح للغزاة فرص الاستقرار والعمل السلمي ، لأنهم كانوا في مراكزهم النائية متفرقين يشغلون قبل كل شيء بالدفاع عن مراكزهم وأنفسهم . بيد أن هذه الغزوات المحلية المتقطعة ، وهذه المستعمرات العربية النائية خلفت وراءها في الأراضي المفتوحة بعض الآثار الهامة المادية والمعنوية . ومن ذلك ما كشفته المباحث الأثرية منذ القرن الماضي على شواطىء خليج سان تروبيه من أطلال الحصون العربية القديمة التي كانت قائمة في تلك الأرض ، والتي لا تزال قائمة في بعض آكام الألب الفرنسية والسويسرية ، وهي تدل على ما كان للغزاة من الحذق والبراعة في فن التحصينات والمنشآت الحربية ؛ وهنالك في جنوب فرنسا ، وفي بعض أنحاء ايطاليا الشمالية والجنوبية ، عدد كبير من الأبراج القائمة فوق الآكام والربى ، يدل ظاهرها على أنها كانت تستعمل لأغراض حربية ؛ ويرى البعض أن هذه الأبراج إنما هي آثار عربية من مخلفات الغزاة ، كانت تبنى لعقد حلقات الاتصال وتسهيل حركات الدفاع فيما بينهم ؛ ومن المعروف أن العرب منذ فتوحاتهم الأولى في سبمانيا (لانجدوك) أعني منذ أوائل القرن الثامن ، كانوا ينشئون في الأراضي المفتوحة حصوناً وأبراجاً تسمى « بالرباط » . بيد أن فريقاً آخر من الباحثين يرى بالعكس أن هذه الأبراج إنما كانت من إنشاء أبناء الأرض المفتوحة ، أقاموها أيام اشتداد خطر الغزوات العربية ليستعينوا بها على رد الغزاة

وقد ظفرت المباحث الأثرية أيضاً بالعثور على كثير من القطع الذهبية والفضية (الداليات) في أنحاء كثيرة من لانجدوك وبروفانس ، وثبت أنها من مخلفات العرب ، وأنها كانت تستعمل للتعامل مكان النقود ، ولكنها لا تحمل اسماً ولا تاريخاً ، ولا يمكن تعيين عهد سكها ، وإن كانت بذلك تدل على أنها ترجع الى عصر الغزوات الأولى . ووجدت أيضاً في الأعوام الأخيرة في منطقة تور سيوف ودروع قيل إنها عربية من مخلفات الواقعة الشهيرة التي نشبت في تلك السهول بين العرب والفرنج (بلاط الشهداء)

ومن الحقائق التي لا شك فيها أثر العرب في الزراعة ؛ فقد رأينا أن كثيراً من الغزاة تخلفوا عن إخوانهم واستقروا في تلك الأرض وزرعوها . ومن المعروف أن العرب حولوا وديان اسبانيا المجدبة الى حدائق وغياض زاهرة ، ونقلوا اليها مختلف الغراس من المشرق ، وأنشأوا بها القناطر العظيمة ؛ وقد حمل هؤلاء الغزاة المغامرون الى جنوب فرنسا كثيراً من خبرتهم الزراعية ، ولقنوها لسكان تلك الانحاء ؛ ويقال إن « القمح الأسمر » الذي هو الآن من أهم محاصيل فرنسا انما هو من مخلفات العرب ، وهم الذين حملوا بذوره وكانوا أول من زرعوه بفرنسا ؛ والمرجح أيضاً أنهم هم الذين حملوا فسائل النخيل من اسبانيا وأفريقية الى شواطىء الريفييرا . ومن آثارهم الصناعية ، استخراج « القطران » الذي تطلى به قاع السفن ويحميها من العطب ، فهم الذين علموه لأهل بروفانس ، وما زال عندهم من الصناعات الدائمة ، وما زال اسمه الفرنسي «Quitran» ينم عن أصله العربي

ومن الحقائق الثابتة أيضاً فضل العرب في تحسين نسل الخيل في تلك الأنحاء ، وما يزال في جنوب فرنسا جهات تشتهر بجمال خيولها ونبل أرومتها ، ولا سيما في « كاماراج » ، وفي مقاطعة « لاند » من أعمال غسقونية ؛ ومن المحقق أن هذه الخيول الأصيلة الجميلة إنما هي من سلالة الخيول العربية التي أحضرها الفرسان المسلمون معهم الى تلك الأنحاء

ولا ننسى ما للدم العربي من أثر في بعض أنحاء جنوب فرنسا ، فقد رأينا أن العرب أنشأوا بعض المستعمرات الزراعية وتزوجوا من نساء تلك الأرض وتناسلوا فيها ؛ ولما تغلب عليهم النصارى ، وأخرجوا نهائياً من تلك الأرض ، تنصر كثير منهم ممن أسروا ، وأرغموا على افتداء حياتهم وأسرهم بالتنصر ؛ وقد

لبث أبناء هؤلاء العرب المتنصرين عصوراً فى تلك البلاد ، يشتغلون بالزراعة والتجارة ، حتى حرفهم تيار التطور واندمجوا أخيراً فى المجتمع النصرانى . واختفت كل آثارهم وخواصهم العربية . ، وما زالت ثمة فى بروفانس فى وادى الرون على مقربة من ليون ، وكذلك فى بيجور على مقربة من جبال البرنيه ، جماعات فرنسية تتكلم لهجات غريبة ، ولها أخلاق وتقاليد خاصة ، ويظن البعض أنها ترجع إلى أصل عربى ؛ ولكن البحث يرجح أنها ترجع الى بعض قبائل النور الذين استقروا فى تلك الأنحاء منذ عصور

هذا ، وأما عن الآثار الاجتماعية ، فانه يلاحظ فى بعض جهات بروفانس التى استقر فيها العرب مدى حين ، أن لسكانها بعض التقاليد الخاصة ، ومن ذلك أنواع معينة من الرقص ، يظن أنها ترجع إلى أصل عربى . على أن أعظم آثار العرب الاجتماعية فى جنوب فرنسا ، يبدو فى تطور الحركة الفكرية فى العصور الوسطى ، فقد كان للعرب أثر عظيم فى تكوين النزعة الشعرية فى الجنوب ، وظهر أثر هذه النزعة واضحاً فى الحركة الأدبية التى تعرف بحركة « التروبادور » Troubadour ، والتى ظهرت فى جنوب فرنسا وفى شمال اسبانيا وشمال إيطاليا منذ القرن الحادى عشر ، وقوامها القريض الحربى والغنائى ، وزعماؤها فرسان شعراء وفنانون . أضف الى ذلك أن تأثير الحضارة الأسلامية فى سير حضارة أوربا الجنوبية لم يقف عند هذا العصر ولا عند هذه الحدود ، فقد استمرت العلائق بعد ذلك طويلا بين مسلمى الأندلس ، والأمم النصرانية المجاورة ، وكان للحضارة الأندلسية فى تطورها الاجتماعى أعظم الآثار

ولقد لبثت ذكرى العرب وذكرى الغزوات العربية فى فرنسا تثير مدى القرن الثامن فى نفوس النصارى أعظم ضروب السخط والروع ، وتقدمها إلينا الرواية الكنسية المعاصرة فى أشنع الصور ؛ فلما ظهرت عصابات النورمان والمجر ، وغزت فرنسا من الشرق والغرب ، رأى النصارى من عيثهم وسفكهم أهوالاً لاتذكر بجانبها أهوال الغزوات الاسلامية ، وارتفعت ذكرى العرب ، وأضحت تقرن بكل ماهو عظيم ضخم[1] ، يقول رينو :

(١) Reinaud, ibid, P. 310

« إن ذكرى الغزوات النورمانية والمجرية لاتوجد إلا فى الكتب . ولكن ما السر فى أن ذكرى العرب مازالت ماثلة فى جميع الأذهان ؟ لقد ظهر العرب فى فرنسا قبل النورمان والمجر ، واستطالت إقامتهم بها بعد الغزوات النورمانية والمجرية . وإن غزوات العرب الأولى ليطبعها طابع من العظمة ، حتى أننا لانستطيع أن نتلو أخبارها دون تأثر . ذلك أن العرب ، دون النورمان والمجر ، ساروا مدى آماد فى طليعة الحضارة ؛ ثم انهم لبثوا بعد أن غادروا أرضنا ، موضع الروع فى شواطئنا ، وأخيراً لأن المعارك التى اضطلعوا بها أيام الصليبيين فى اسبانيا وأفريقية وآسيا ، أسبغت على اسمهم بهاء جديداً . بيد أن هذه العوامل كلها قد لاتكفى لتعليل المكانة العظيمة التى يتبوأها الاسم العربى فى أوربا وفى أذهان المجتمع الأوربى . أما السبب الحقيقى لهذه الظاهرة المدهشة ، فهو الأثر الذى بثه قصص الفروسية فى العصور الوسطى ، وهو أثر لايزال ملموساً الى يومنا[1]

محمد عبد الله عنان
المحامى

(١) Reinaud; ibid, p. 311,312 وقد اعتمدنا على مؤلف هذا العلامة فى كثير من هذه النقط الخاصة بآثار العرب فى جنوب فرنسا